

فاس عاصمة الأدارسة

للأستاذ مصطفى بعيو الطرابلسي



بقيام الخلافة المباسية تبدأ صفحة جديدة في تاريخ العلويين تختلف تمام الاختلاف عما ألفناه في عهد بني أمية؛ فهم في هذه المرة يلجأون إلى وسيلة جديدة لمناهضة أعدائهم وتحقيق أغراضهم هذه الطريقة الجديدة هي الانتشار في الأقطار الإسلامية بعيداً عن العاصمة وعيون الخلافة ومحاولة إنشاء خلافة علوية.

وربما كان العلويون في ذلك قد اهتموا بهدى المباسيين عندما بعثوا بدعوتهم إلى البلاد الشرقية ولا سيما خراسان حيث تمت دعوتهم وترعرت. وإذا كانت الخلافة المباسية قد وجدت من الظروف والملاذبات ما ساعدها على القيام في الشرق فإن العلويين قد وجدوا في بلاد المغرب ظروفاً أخرى مشابهة ساعدتهم على تحقيق أغراضهم؛ فهي بعيدة عن مراكز الخلافة بعداً كافياً يساعدهم على العمل والحركة بالإضافة إلى ما كان يسود تلك الجهات من تدمير بين أهلها الذين رأوا الفتن ينزل بهم رغم ما أبدوه من مساعدة فعالة للعرب في فتوحاتهم في أسبانيا، ولكنهم لم يقاسمهم الأغانم بل ولم يخفف الولاة ما كانوا يفرضونه عليهم من ضرائب. وبجانب هذا كله كانت النزعة الاستقلالية عند البربر في شمال أفريقيا ما زالت متحفزة تتحين الفرص لإظهار نفسها. وقد عانى العرب الكثير من جراء ذلك في سبيل إخضاع هذا الإقليم. لذلك كان أهل على استمداد للترحيب بأي داع للخروج على الخلافة المباسية في بغداد، وهذا ما نستطيع أن نمل به انتشار مذهب الخوارج هناك وبالتالي المذهب الشيعي.

أما متى وكيف وصل الأدارسة إلى المغرب الأقصى وكيف استطاعوا إنشاء دولتهم هناك فهذا ما يمكن تلخيصه في السطور التالية.

على أثر فشل الحركة التي قام بها الحسين بن علي بن الحسن الثالث في عهد الخليفة الهادي تفرق أتباعه ومن بينهم عمه إدريس ابن عبد الله الكامل الذي فر إلى مصر محبة مولاه وأمينه راشد

ابن مرشد الزبيدي ومنها إلى شمال أفريقية بمساعدة الواضح صاحب بريد مصر الذي كان يبطن العقيدة الشيعية. وهناك أخذ ينتقل بين مدن المغرب الأقصى حتى انتهى به الطاف في مدينة وليلى حيث أكرمه أميرها إسحاق بن محمد زعيم قبيلة أوربة البربرية وأكثرها عدداً^(١).

ولما علم إسحاق بحقيقة أمره وتأكد من صحة نسبه تنازل له عن إمارته وطلب من قبياته وبقية القبائل الأخرى مبايعته فأجيب إلى طلبه.

وهنا يحق لنا أن نتساءل هل فعل إسحاق ذلك لاعتقاده أحقية إدريس في الإمارة دونة فأقدم على هذه التضحية في سبيل مبدئه، أم فعل ذلك لأغراض سياسية؟ ربما كان السبب الثاني أقوى للأخذ به؛ ذلك أن مظهر التضحية في سبيل العقيدة يتناقض مع ما كان عليه هذا الأمير من اعتناق لمذهب الخوارج في أول الأمر ثم تحوله إلى المذهب الشيعي. والواقع أن هذا الأمير أراد بسلوكة هذا أن يكسب لقومه أكثر مما خسر؛ فهو يأمل أن تقام هناك دولة في شمال أفريقية يكون له فيها ولأتباعه من البربر نفوذ كبير بعد أن يؤسوا من إنصاف العرب لهم. فكأنهم كانوا يرمون إلى إنشاء دولة يكونون فيها العماد الرئيسي كما كان للفرس النفوذ الأكبر في العصر الأول للدولة المباسية. ويمكننا أيضاً تعاليل هذا النجاح الذي سادفه إدريس في أول أمره بأنه كان قد اصطحب معه مولاه راشد بن مرشد الزبيدي وهو على ما قيل^(٢) بربري الأصل أسر أبوه في إحدى غزوات موسى بن نصير، فلما رجع مع إدريس إلى موطنه الأصلي كان خير مساعد له على بسط نفوذه هناك. هذا إلى ما كان عليه إدريس من ذكاء خارق وحسن سياسة؛ يتجلى لنا ذلك عندما أراد أن يشمل أتباعه حتى يضمن ولائهم له، فخرج غازياً ناشراً الدين الإسلامي في البقاع المجاورة التي لم ينتشر فيها بعد.

هكذا وضع إدريس النواة الأولى لدولة الأدارسة في مدينة وليلى، واستطاع أن يكسب صداقة الحكم بن هشام أمير

(١) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٦٨ : السلاوي

(٢) الدرر السنية في أخبار السلافة الإدريسية ص ٤٣ : السيد محمد

النوسي الأدرسي

أول قيامها اعتمدت على المنصر الفارسي حتى إذا ما وثقت من نجاحها انقلبت عليه . وكذلك الحال في الخلافة الفاطمية ؛ فالموامل السياسية والأهواء الشخصية تتحكم كثيراً في مجرى الحوادث التاريخية .

ولما رأى إدريس الثاني أن الأمر قد استقام له ، وأن مدينة وليل لم تعد صالحة لأن تكون عاصمة لدولته عزم على الانتقال منها إلى مدينة يقوم بتخطيطها فيسكنها هو وخاصته وجنوده ووجوه أهل بيته . وربما كان إدريس في بنائه لهذه المدينة الجديدة وأعنى بها مدينة فاس مدفوعاً بما ملأ آخر هو ما اعتدنا ملاحظته عند قيام أى خلافة أو دولة إسلامية جديدة حتى يكون التجديد عاماً شاملاً . واختيار المواعين الجديدة ليس من الأمور السهلة ؛ فهو يحتاج إلى دراسة وخبرة بالأمكنة المختارة حتى تؤدي العاصمة الغرض من إنشائها وقم بصره على جبل زالف فأعجبه ارتفاعه وطيب تربته واعتدال هوائه فامر ببناء العاصمة في سفحه . وبدأ العمل بسورها ، ولكن ما لبث أن انحدر سيل من أعلى الجبل فهدم ما كان قد بناه من السور وحمل معه ما كان حوله من خيام العرب ، فاضطر أن يرحل عن هذا المكان فانتقل إلى وادي سبوا فأعجبه المكان ولكنه خاف كثرة مياهه حتى لا تنكسر الحوادث . وأخيراً ترك أمراً اختيار مكان عاصمته الجديدة لوزيره عمير بن مصعب الذي وفق كل التوفيق . ذلك أن عميراً قد استمر يختبر البقاع حتى انتهى به اللطاف إلى العمون التي ينبع منها نهر فاس ، فلقت نظره كثرة عددها وقد سالت مياهها فسار مع مسيل الوادي حتى وصل إلى موضع مدينة فاس فأعجبه المكان إذ هو في وسط منبسط يفصل تلال الساحل عن جبال الأطلس الكبرى ، وعلى الطريق الرئيسي الذي يبرهضاب الأطلس ، وحيث تلتقي أهم طرق مراكن البرية ، وحيث يبدأ المخرج النهري لهذه الناحية وأعنى به نهر سبوا الذي يصب في المحيط الأطلس والذي يعتبر أكبر أنهار مراكنش . نظر عمير إلى ما بين الجبلين فإذا غيضة ملتفة الأشجار بها خيام من شعر لقبايل من زناتة يعرفون بزواغة وبنى بزغة فرجع إلى مولاه وأخبره . بنتيجة بحثه فتفاد إدريس باسم مالك هذه الجهة عندما عرف أنها ملك لقوم من زواغة يعرفون ببني الخير فاشتراها منهم

(البقية في العدد القادم) مصطفى بعبو الطاهر البسي

لباسه في الآداب من جامعة فاروق الأول

الأندلس الذي أرسل إليه وقدأ بهنثه بالإمارة الجديدة ويطلب إليه التحالف على من يناوئهما ؛ فقابل الوفد بالحفاوة والإجلال . ولا شك أن الأغراض السياسية هي التي وحدث بينهما وقاربت بين نظريهما .

خاف الرشيد استفحال خطر إدريس بالمغرب الأقصى فسمى للتخلص منه ؛ ولكن كيف السبيل إلى ذلك وهو على بعد لايساعده على إرسال الجيوش للقضاء عليه ؟ استشار في ذلك يحيى بن خالد البرمكي فأشار عليه بإرسال من يستطيع قتله فلقبت هذه الفكرة قبولاً في نفس الرشيد فمولى على تنفيذها . وإذا كانت الروايات قد اختلفت في طريقة دس السم لإدريس ، وهل أرسل إليه الرشيد مباشرة شخصاً لتنفيذ ذلك أو كاف إبراهيم بن الأغلب لإرسال من يقوم بهذه المهمة فإنها قد أجمعت كلها على وفاة إدريس مسموماً وعلى أى حال لم ينقرض حكم الإدارة بموت إدريس الأول على رغم أنه لم يترك من يخلفه ، وربما كان ذلك راجعاً لإخلاص البربر وحسن تدبير راشد السابق الذي استطاع أن يقنعهم بضرورة الانتظار حتى تضم كنزة جارية إدريس البربرية طفلها فإن كان ذكراً بايموه ، وإن كان أنثى أجهوا رأيهم على من ينتخبونه . وتحقق الأمر ووضعت كنزة طفلاً هو إدريس الثاني الذي قضى عصر الوصاية كله في قن لما كان يظهره إبراهيم بن الأغلب من تحرش بأتباعه . ولما كبر ذاع اسمه وأنته الوفود من سائر البلاد . وكان ممن وفد عليه خمسمائة فارس من أفريقية والأندلس من القيسية والأزد والخزرج ومدلج وبنى بمصعب . فأكرم الإمام وفادتهم وأجزل صلاتهم وقربهم ورفعهم وجعلهم بطانته دون البربر . وربما كان هذا راجعاً إلى أنه كان يرى نفسه وحيداً بين البربر . ولكن الأمر ما لبث أن تطور إلى تفضيهم علانية على البربر الذين انقلب عليهم فاستوزر رجلاً من العرب هو عمير بن مصعب الأزدي بدل إسحاق بن محمد الذي أنزل به غضبه فقتله رغم ما آداه لوالده من جلائل الأعمال بحجة موالاته لإبراهيم ابن الأغلب . وربما كان إدريس في عمله هذا غير محق ؛ فهو قد اعتمد على البربر وتأييدهم ولولاهم ما وصل أبوه ولا هو من بعده إلى هذا المركز . ثم هو أيضاً يمت بصلة القربى إلى القبائل البربرية من جهة أمه ، فتمرده عليه مظهر إن دل على شيء فهو يدل على حب التحرر من القيود والشعور بالخوف من البربر ؛ وليس هذا بغريب في تاريخ قيام البيوت الإسلامية ؛ فالخلافة العباسية في